العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي
من خلال مقالاته

بقلم: د. أكرم حمدان

لم أكن أعرف الدكتور الطناحي قبل اطلاعي على مجموع مقالاته التي نشرتها دار البشائر الإسلامية في مجلدين، وصدرت الطبعة الأولى منها سنة ٢٠٠٢. ولئن كان الأسهل على المرء أن يسوّغ ذلك بأن الرجل لم ينل من الشهرة ما ناله غيره من الأعلام الذين سارت بأسمائهم الركبان، إذا سمح لنا الأساتذة الكرام أمثال أحمد أمين ومارون عبود والعقاد، ومن سار سيرهم في الحملة على الاجترار، أن نجتر هذا التعبير، حيث لا قوافلَ ولا ركبان، فإن الأساتذة الأفاضل الذين درسونا أيام الجامعة يتحملون جزءاً من سبب جهلنا بعلم كبير مثل الدكتور الطناحي رحمه الله وطيب ثراه، ولا سيما أولئك الذين كانوا قد سافروا وتقلبوا في البلاد، وقابلوا من الناس من لم يقابلْ غيرُهم، وعرفوا من الرجال من لم يعرفْ سواهم. على أن جزءاً من هذا الجهل راجع إلى تقصيرنا نحن في البحث والتنقير، وانصرافنا عن القراءة والاطلاع، ولا سيما أن الرجل ترك من الإنتاج العلمي خمسة وثلاثين كتاباً، بين تحقيق وتأليف، أثرى بها المكتبة العربية، وأفاد بها وأجاد.

وأما وقوعي على كتاب مقالات العلامة الدكتور الطناحي فراجع إلى شغفي بقراءة مقالات الأعلام، ذلك الشغف الذي نما وترعرع من خلال قراءتي مقالات الأستاذ الكبير أحمد أمين في "فيض الخاطر"، ثم مقالات الأستاذ مارون عبود في "آخر حجر" و"الرؤوس" و"مجددون ومجترون" وغيرها من كتبه النفيسة، ثم ما توالى بعدُ من كتب ضمت مقالات عالية لعدد من الكتاب الكبار والأساتذة الفاضلين. وذلك أن القارئ كثيراً ما يجد في المقالات والبحوث القصيرة المركزة ما لا يجده في المطولات من الكتب، مما يُحبّ أن يتعرف عليه، بحكم فضوليته، من العلاقات والوشائج، وأقوال الرجال في الرجال، من أصحاب الفكر والعلم والقلم، وما إلى ذلك، مما لا يخلو من فائدة ومتعة، ولا تتسع له صفحات الكتب على طولها.

ومَثَلُ ذلك أنني قرأت الكثير لأحمد أمين، ولم أزل مشغوفاً بمطالعات ما ترك من كتب وبحوث ومقالات[1]، بيد أني لم أعرف أنه كان يملي إملاء بأخرة من حياته، وأن الذي كان يكتب له هو تلميذه الأستاذ الكبير إحسان عباس، إلا من خلال مقالة للدكتور عباس في كتابه الذي ضم بين دفات مجلداته الثلاثة ما أبدعته قريحة مؤلفه من بحوث ومقالات خلال حياته العلمية الحافلة، ونشرته له دار الغرب الإسلامي عام ٢٠٠٠. وكذلك ما كنت أعلم أن الإمام الشهيد حسن البنا، على حبي الشديد له وقراءتي له وعنه، خطا في مجال تحقيق التراث خطوة إلا من خلال مقالة للدكتور الطناحي في كتابه "في اللغة والأدب" عنوانُها: "المحققون من أبناء دار العلوم"[2]. ومهما يكن من شيء، فأنت تجد في هذه المقالات من المتعة الذهنية ما لا تجد في غيرها، وتقف فيها على نكتٍ وطرائفَ ولطائفَ لا تقف عليها في سواها.

ومن هنا، فلما وقع نظري على هذا العنوان بينما كنت أنظر في فهارس دور النشر، سارعت بالإعلام عليه وطلبه مع كتاب له آخر عنوانه "في اللغة والأدب: دراسات وبحوث"، فلما جاءني الكتابان جعلتهما من أوائل الكتب التي وضعتها على القائمة للقراءة. وما هي إلا أن قلبت صفحات أول الكتابين، حتى أدركت أنني أمام علم من أعلام العربية في العصر الحديث، وباحث من الباحثين الجادين، وكاتب محكم الفكرة، جزل العبارة، رصين الأسلوب، غزير العلم، واسع الثقافة. وعجبت من نفسي أنْ لم أعرف هذا الرجل من قبل. ثم ازدادت صلتي به من خلال متابعة أخباره من هناك ومن هناك، والاستمتاع بقراءة مقالاته

وبحوثه، التي ضمها ثاني كتابيه الذي يقع أيضاً في مجلدين، فإذا رجل صادق النفس قوي الإيمان، لم يشغله شاغل كتراث أمته، فوقف نفسه عليه، متتبعاً مخطوطاته، ومعتنياً بتحقيقه، ومضطلعاً بفهرسته في كثير من الدول والمؤسسات، إلى اشتغاله بالعلم والبحث والتدريس، حتى نودي في السادس من ذي الحجة سنة ألف وأربعمائة وتسعة عشر، فأجاب نداء ربه، وألقى عصا التسيار في هذه الحياة وهو في أتم صحة وأكمل عافية.

والدكتور الطناحي أزهري درعمي، ولد عام ١٣٥٣ من هجرة المصطفى، صلى الله عليه وسلم، بمحافظة المنوفية في مصر، وتقلب في مناصبَ أكاديميةٍ كثيرة، منها عمله أستاذاً بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة، فرع الفيوم، وأستاذاً بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة حلوان، وأستاذاً مشاركاً بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وفي غيرها. وهو شديد الانتصار لتراث هذه الأمة، والاعتداد به، عارف بمظانه، مطلع على كنوزه، متمكن من أدوات النظر فيه، ونقده وتقويمه، كما يظهر واضحاً من خلال مقالاته المختلفة، ولا غرو، فهو حواريّ الشيخ شاكر، وتلميذه الأريب!

على أن أهم ما أبرزه هو اتصاله بعالم المخطوطات العربية، إذ دخل في هذا المجال ناسخاً ومفهرساً ومحققاً، وأتيح له من خلال انتدابه عضواً في بعثات معهد المخطوطات العربية أن يزور تركيا والمغرب والسعودية واليمن، وأن تكون له اليد الطولى في الكشف عن نوادر خزائنها وفهرسة مخطوطاتِها. وقد أكسبه العمل في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية خبرات واسعة بكنوز التراث العربي بفضل تلمذته على عالِمَي المخطوطات الكبيرين: محمد رشاد عبد المطلب، وفؤاد السيد. وكان رشاد عبد المطلب، كما يقول الطناحي، "من العلماء بالمخطوطات وأماكن وجودها، وكان لا يُجارَى في معرفة المطبوعات وأماكن طبعها شرقًا وغربًا، والفرق بين الطبعات، وعدد طبعات الكتاب المختلفة، ومن وراء ذلك كانت له صلات وثيقة بعلماء الدنيا من عرب وعجم". ويتابع الطناحي قائلاً: "كنتُ لصيقًا به ملازمًا له عشر سنوات في معهد المخطوطات.. وتعلمت منه الكثير"[3]. ثم ما كان من تلمذته على علامة العربية الشيخ محمود محمد شاكر، الذي حل من قلبه في أكرم موضع، وفاز لديه من الحب والتقدير بالسهم الأغلب والنصيب الأوفر، وكان لديه صاحب القدر الرفيع والجواب الطائع، إذ كان الدكتور الطناحي، رحمه الله، شديدَ التعلق به والدفاع عنه، كما سيأتي في ثنايا هذه المقالة، التي من تمام تعريفي به فيها أنني سأحرص على أن أسوق فيها من كلامه كلما واتت الفرصة قدر المستطاع، تشويقاً للقارئ وحثاً له على طلب المزيد.

* * * * *

نظرة في النحو العربي

وأول ما يلفت انتباه قارئ مقالات الطناحي أن الرجل قد أحب لغة العرب حتى شغف بها، وغدا جندياً من جنودها، وحارساً من حراسها، يدافع عنها ويذب عن حياضها، ذبَّ من ملك أدوات العلم والبحث والمناظرة، لا دفاعَ أصحاب التهويش والتهاويل الفارغة، ممن يسيئون من حيث يحسبون أنـهم يحسنون، ويهدمون وهم يظنون أنـهم يبنون. ولا عجب، فقد كان الرجل، كما مضى، حجة في فنون العربية وآدابها، حافظاً للقرآن الكريم، عارفاً وجوه قراءاته، ذكياً سريعَ اللمحة، مطلعاً على كتب التراث، متمكناً من تحقيقها[4].

ويظهر أثر ذلك الشغف في كل ما رَقَمَه قلمُه، بَلْهَ ما خصصه لذلك من مقالات، كتلك التي يرد فيها على مقالةٍ كتبها الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، عنوانُها: "حين يستوي الصمت والكلام"، وخلاصتها أن اللغة ليست هي النحو، وأن

المبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نـهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة، بل ربما كانت بالعكس دليلاً على ضعف السليقة وانحطاط الملكة. والطناحي في رده على هذه المقالة لا يجتهد في تبيين فضل النحو وسلطانه على سائر العلوم العربية فحسب، إذ قد أبدأ في ذلك وأعاد، وحشا فيه وكرر، ولكنه يغوص في أعماق الكتب لينتزعَ منها أمثلة تبين سلطان النحو على اللغة والفكر والفن معاً، فهو، وإن كان يتفق مع حجازي على أن اللغة ليست هي النحو، بل يقرر أن ذلك مما قاله أهل العلم من قديم، فإنه يرى أن النحو إبداع، و"ليس موضوعاً يحفل به المشتغلون بالمثل اللغوية، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ، أو يرون الصواب رأياً واحداً"، فالنحو عنده "مشغلة الفنانين والشعراء"[5].

والبديع في هذه المقالة هو تفريق الطناحي بين نحو الصنعة ونحو التراكيب وبناء الجملة العربية، والأخير في نظره، ونظرنا معه، هو النحو الشامخ القائم على رعاية المعاني والدلالات، التي خرجت بالنحو من دائرة القوالب والنظام والاطراد، إلى العلاقات بين أجزاء الكلام، وتلك المنادح الواسعة من التقديم والتأخير، والحذف والتقدير، والإضمار والفصل، والاتساع والحمل، والتضمين والجوار، والاستغناء ورعاية الظاهر واعتبار المحل، ومعاني الحروف والأدوات ووقوع بعضها موقع بعض، وتبادل وظائف الأبنية، ثم لغة الشعر التي يسمونَها الضرائر. قال: "وهذا تستطيع أن تدركه من أول كتاب سيبويه إلى النحو الوافي لعباس حسن، على تفاوت بين النحاة في ذلك، وتستطيع أن تدركه أيضاً في كتب أعاريب القرآن وتوجيه القراءات السبع والعشر والشواذ، وشروح الحديث النبوي، وفي شروح الشعر وكتب الأمثال وعلوم البلاغة"، ومن ثم فهو يرى أن "النحو بهذا الوصف لا يصح أن يطعن فيه أو ينتقص منه، لأن الطاعن فيه منتقص للعربية كلها، ذاهب عنها جميعها"[6].

ويمضي الطناحي مبرزاً ما مر به النحو العربي على أيدي نحاته الأكابر من قفزات سمت به، فيتناول قضية تجاذب المعانى والإعراب، وما كان لابن جني فيها من قول، ثم ما وُفِّق إليه الشيخ عبد القاهر الجرجاني، الذي كان يعرف عند الأقدمين بعبد القاهر النحوي، من نظرية النظم.

ثم تراه يشن على حجازي هجوماً كاسحاً في الجزء الثاني من مقالته هذه، لانتقاصه من قدر ابن منظور وابن هشام، اللذين يرى الطناحي أنه لولا ما صنعاه هما وغيرهما من لغويي ونحاة وعلماء القرن الثامن، وهو العصر المملوكي الذي دأب بعض الكتاب على وسمه بعصر الانحطاط، لضاع علم كثير، ولضعُفت ذاكرة الأمة العربية ثم تلاشت.

ولم يترك الطناحي الأستاذ حجازي قبل أن يناقشه الحساب في قوله: "إن الدكتور طه حسين قد أخرج بمنهجه الشعر الجاهلي من سلطان النحاة"، فينشئ لذلك مقالة عنوانُها "النحو والشعراء"، ينقض فيها عرى هذا الكلام عروة عروة، ويبين أنه من الكلام الذي يرسل إرسالاً، وكأنه من الحقائق المؤكدة التي استقرت عند الناس، ولم يبقَ لأحدٍ فيها مقال. ويطالب الطناحي الأستاذ حجازي بتحديد هؤلاء النحاة وبيان مدى سلطانِهم المزعوم، إذ من النحاة من كان مع الإبداع الشعري، كأبي علي الفارسي وابن جني، بل إن كثيراً من نحاة الصدر الأول كانوا في قلب الحركة الشعرية وفي الصميم منها، كأبي عمرو بن العلاء الذي كان راوية لذي الرمة، الذي يقال إن شعرَه يُمثل ثلثَ لغة العرب. وكذلك كان يونس بن حبيب، شيخُ سيبويه، شديدَ الاختصاص برؤبة بن العجاج. كما كان نفطويه يحفظ نقائضَ جرير والفرزدق وشِعرَ ذي الرُّمة. وينتصر الطناحي من بعدُ لمنهج النحاة في تقعيد القواعد واستبعادهم ما شذ عن النظام اللغوي الذي قعد النحاة قواعده عليه. وفي هذه المقالة يرى أيضاً أن الضرورة الشعرية لا تسوِّغ الخروج عن السنن العربية، وأن العميد طه حسين نفسَه يعيبُ على بعض الشعراء المحدَثين خروجَهم على قواعد النحو، ويوافقه في ذلك صلاح لبكي.

وإنني أهيب بأساتذة النحو العربي ودارسيه على السواء أن يتأملوا آراء هذا العالم في النحو، والتي خلاصتها أن "النحو القائم على رعاية التراكيب والدلالات في الكلام العربي الملفوظ والمكتوب، هو النحو الذي ينبغي معرفته وتأمله والاستكثار منه، لأنه بهذا المفهوم مِلاك العربية وقوامها، بل إنه كان يعبر عنه أحياناً في القديم بالعربية"[٧]، وأن يجتهدوا في الخروج بالنحو من جفاف النظرية إلى خصب التطبيق، ومن مسارب كتب الصناعة إلى رحابة ما نطقت به العرب العرباء، وأن يجمعوا إلى نحوهم شيئاً من الأدب الحي، واللغة العذبة، حتى يجدوا لكلامهم سبيلاً ومذهباً، ولتوجيههم مقنعاً وبلاغاً، فيجعلوا النحو بذلك حياً في كل ما يكتبون ويقولون، علَّ جيلاً ينشأ على حب النحو وعشق العربية. وليحذروا مع ذلك من دعاوى تيسير النحو، التي لا تقود إلا إلى تشويهه وبتر أعضائه، فإن كل عبارة خطت في هذا السفر النحوي العظيم، إنما هي خيطُ لحمة أو سدى في ديباج نسيجه، كما يقول الأستاذ يوسف الصيداوي، فلينظر المرء ماذا ينسل وماذا يبتر! وليعلم في كل حال أنه بما يفعل، إنما يقطع أوصال كائن حضاري، لو مَلكتْ مثله أمة من الأمم الراقية لحَرَصَتْ عليه حِرصَها على إنسان عينها، ولعاقبت مرتكبَ تيسيره عقابَ من يُسيء إلى أمة[٨].

* * * * *

الشعر والأمثال العربية

ومما يكثر دورانه في مقالات الطناحي الشعرُ والأمثالُ العربية، فهو يقتنصها اقتناصاً، ويسوقها في حاقِّ مواضعها، من غير تكلف ولا تمحل، وربما يشير إلى قائليها ومن تنسب إليهم إذا وسِعَه المقام، ومن ذلك ما ساقه من قول العرب: "شِنْشِنة أعرفها من أخزم"، وقولهم: "ثبِّت نسباً واطلب ميراثاً"، و"من يَعِش يرَ عجباً". بل إن مجرد وضع الطناحي هذه الأمثال في مواضعها المناسبة من الكلام، يكاد يكون شرحاً لغامضها، وتوضيحاً لمبهمها، وتبيينا لمواطن استعمالها.

وشواهد الطناحي من الشعر تقوم دليلاً آخر على تمكن الرجل وسعة اطلاعه، وهو يُكثر من ذلك، ويأتي فيه بالبديع المعجب من الشواهد التي لا يكثر دورانُها على ألسنة الناس ولا في كتاباتِهم، ولكنك لا ترى إلا شواهد قد جاءت في محالها، غير مستثقلة ولا مستكرهة، تنبئ عن علم غزير وذوق. ودونك استشهادَه بقول الشاعر:

فإلا يكونوا قاتليه فإنــــه ** سواء علينا ممسكاه وضاربه

وقوله الآخر:

يديرونني عن سالم وأديرهم ** وجلدة بين العين والأنف سالم

وربما أمسك عن ذكر شاهد يحضره في مسألة بعينها، خشية الإساءة، واستبراءً لدينه وعِرضه؛ يقول في معرض رده على الأستاذ حسين أحمد أمين، وسيأتي حديثه: "ويحضرني الآن شاهد من الشعر وصورة من التشبيه، ولكني أمسك عنهما، صوناً لنفسي من الزلل، واستمساكاً بأصول أخلاقية ألزمت بها نفسي منذ أن عرفتُ طريقي للكتابة والمذاكرة والمحاضرة. وأنا أنشد لنفسي دائماً قول ابن فرج الجياني الأندلسي:

فملّكت النهى جمحات أمري ** لأجري في العفاف على طباعي[٩]

وبالجملة، فأنت لا ينقضي عجبك مما بُثَّ في مقالات هذا العالم من فوائد لغوية وطرائف أدبية ونكات نحوية ونوادر عجيبة، إن في التفسير أو الحديث أو التاريخ، أوغير ذلك من العلوم، لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات الكتاب، ناهيك بأقواله في التراث وتحقيقه، ورجاله ونسائه من العرب والمسلمين والمستشرقين مما سنلم بطرف منه عما قليل.

* * * * *

تَهاويل فارغة

ولا يكاد الطناحي يمر بشيء من المصطلحات الحديثة التي باتت تدور في فلكها كتابات كثير من الكتاب، إلا ويجرد له سيفه، ويشن عليه حملته، فبينه وبينها عداء متمكن، فهو دائماً يصفها بالتهاويل الفارغة التي لا طائل تحتها، ودونك حديثه عن تعلمه العربية إذ يقول: "... فعرفنا العربية صافية قبل أن تكدّرها الدلاء، فلم يكن الدرس الأدبي واللغوي في أيامنا غارقاً في ضباب المصطلح والنظرية، وتقويم الفكر العربي، وسائر تلك التهاويل الفارغة والدعاوى العريضة التي فتحت الباب للصغار يعبثون بتاريخهم وعلومهم!"[١٠]

ويظهر ذلك في تعليقه على كلام للدكتور أحمد درويش عن النحو العربي بقوله: "وأخطر ما في كلام الزميل العزيز أنه استطال فيه بذكائه، واحتشد له بتلك المصطلحات والتراكيب التي تخطف بصر القارئ وتَهزه هزاً، وتخيفه (تخضه) ... وهو نمط من الكلام إن أعجب بعضَ الناس فإنه عند كثير منهم خفيفٌ هين، كما قال الشاعر: "وخمر أبي الروقاء ليست تسكر"[١١].

ونحواً من هذا ذكر في معرض رده على كلام الأستاذ حجازي إذ قال: "على أن الزجَّ بهذه الكلمات: الآداب اليونانية، والمرحلة الهللينية والسكندرية، وروما في القرن الرابع ... كل ذلك وأشباهه مما يلقيه الكاتب إلى القارئ أو السامع –وبخاصة المبتدئ- فيهزه هزاً، ثم يدهشه ويرعش عقله ويخيفه (يخضه) فتضعف حجته في الرد عليه أو دفعه لو وجد إليهما سبيلاً، على ما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: "ونصرت بالرعب مسيرة شهر"[١٢].

وإليك هذا الوصف البليغ الذي يصف به الطناحي ما بات يدور في كتابات أهل النقد من مصطلحات نقدية، وما ينساق إليه كثير من الكتاب والشعراء من الغموض الذي يدع الحليم حيران، فتلك المصطلحات في نظره إن هي إلا "ألفاظ مستهلكة تشبه العملة المعدنية الممسوحة، أو العملة الورقية التي تَهرأت أطرافها من كثرة ما تداولتها الأيدي، أو كالعملة الزائفة التي ليس لها رصيد في مصرف النفس، وإنما هي ألفاظ وتراكيب تسود بها الصحف، تروح وتجيء، تتجاوزها عينك على عجل، لا تقف عندها، لأنك لا تجد فيها إمتاعاً، ولا تُحِسُّ معها أنساً، فضلاً عما تجده في بعضها من ثقل وغثاثة، تكاد تطبق على القلب وتسد مجرى النفس –وما أمر "الزخم" منك ببعيد، إلى هذه البلية المستحدثة، وهي بلية الغموض الذي يندفع فيه كثير من الأدباء الآن، وليس هو الغموض الذي يحرك النفس لتستخرج بحسن التأمل خبيء الكلام ومطوي المشاعر، ولكنه الغموض المظلم الذي يكد العقل، ويكون مجلبة للغم والكآبة، غموض العجز والحيرة"[١٣]. ثم يمضي ليقول: "وهذه الألفاظ والتراكيب التي يستعملها بعض أدباء هذا الزمان، أشبه بتقاليع (الموضة)، تظهر ثم تختفي، لا تعرف ثباتاً ولا استقراراً، فقد كنا نسمع في الستينات ... الوحدة الموضوعية، والمعاناة، وعمق التجربة، والخلق وتراسل الحواس، والمونولوج الداخلي، والدفقة الشعورية، والتعبير بالصورة، والألفاظ الموحية، والشعر المهموس. والآن نسمع: الإبداع وتكثيف التجربة، والزخم (والعياذ بالله) والطرح، والمنظومة والإشكالية والتناص والتماهي والتفجير والتفكيك ... وهذا وأشباهه إنما هو كما قال ابن قتيبة منذ (١٢٤٠) سنة في مقدمة أدب الكاتب: "ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم، فإذا سمع الغُمر-أي الجاهل- والحدث الغرُّ قوله: الكون والفساد، وسمع الكيان... راعه ما سمع، فظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة ولطيفة، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل"، أو كما قال أبو السعادات بن الشجري: "تَهاويل فارغة من حقيقة". ثم عقب الطناحي بقوله: "ولا يغرنك أيها القارئ اجتماع الكتاب على هذه الألفاظ، وكثرة استعمالهم لها، فإن الاستعمال ليس بدليل على الحسن، كما يقول ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر"[١٤].

وقد أكد الطناحي نظرته هذه في مقالة طريفة من مقالاته القصيرة، التي جُمعت أيضاً تحت عنوان: "الكلمة الأخيرة" وذُيّل بها مجموع مقالاته. وخبر تلك المقالة أن ابنته طالبة في إحدى كليات الآداب، وأنه هو يعلم العربية في كلية مناظِرة، فكان حقاً

عليه، كما يقول، أن يكون في عون ابنته فيما يشكل عليها مما تدرس من علوم العربية. يقول: "لكني أقف عاجزاً أمام كثير مما تدرسه ابنتي، وبخاصة ما يتعلق بعلوم النقد الأدبي والبلاغة والأدب المقارن وتحليل النصوص، فكثير مما يقدم من هذه العلوم للطلبة الآن كلام عجيب حقاً، وليس له من العربية إلا الحروف والأفعال والأسماء، مصبوباً ذلك كله في نظام نحوي صحيح في جملته، لكنك إذا أردت أن تخرج منه بمعان أو دلالات ذات معنى أعجزك ذلك، فهو كلام "تعقل معنى مفرداته، ولا تفهم مركباته" كما وصف ابن دقيق العيد كلام ابن سبعين الصوفي، وأحياناً لا تعقل مفرداته، ولذلك يعجزني -على كثرة ما قرأت وحفظت- أن أجيب ابنتي على ما تسأل، وكثيراً ما أجيبها: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"، ثم أصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم"[١٥]. وتحضرني في هذا المقام كلمة للفارابي في المنجمين تكاد تنطبق على كثير مما يأتي في كلام هؤلاء، قال فيها: "اعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت الحار بارداً، والبارد حاراً، والسعد نحساً، والنحس سعداً، والذكر أنثى، والأنثى ذكراً، ثم حكمت، لكانت أحكامك من جنس أحكامهم، تصيب تارة، وتخطئ تارات"[١٦].

* * * * *

الطناحي والقراءات

وكنت قد ذكرت في مقالتي السابقة عن معلم اللغة العربية أن اللغة العربية كلٌّ متكامل لا غنى لموضوع فيها عن الآخر، وهذا ما يجده قارئ مقالات الطناحي، رحمه الله وبَرَّد مضجعه[١٧]، فأنت تجده قد ضرب في كل علم من علوم العربية بسهم، ثم لم يترك كتاباً من كتب القراءات والتفسير والحديث، ولا من كتب السير والتراجم والرجال، ولا من كتب الفقه والمنطق والأصول، وقعت عليه يده، إلا ونظر فيه نظر الخبير الواعي، وذلك من آثار تلمذته على الشيخ شاكر الذي كان من وصاته لتلامذته أن يقرؤوا الكتب قراءة كاملة، من أولها إلى آخرها، وألا يكتفوا بالرجوع إليها بين الفينة والأخرى، ويتعاملوا معها تعامل المصادر والمراجع، يأخذون منها حاجتهم ويمضون، كالطائر العجل يحسو من الماء حُسوة ثم ينطلق في فضاء الله. وقد كان ذلك دأب الشيخ شاكر وهجيراه، فقد كان، كما يقول عنه الطناحي، "ينعم بما أفاء الله عليه من مكتبة ضخمة عامرة، لم تتيسر لأحد من علماء عصرنا، قرأها كلها قراءة كتاب واحد، بذلك العقل الذكي الذي يجمع كل شاذة وفاذة".

وقد كتب الطناحي مقالة عنوانُها: "الشيخ الشعراوي والفتنة بما يقوله الكبار"، أبرزت تمكنه من القراءات، ودفاعه عنها، وبيان ذلك أن الشيخ الشعراوي، رحمه الله وأجزل مثوبته، عرض في بعض الحلقات قبل وفاته لقضية القراءات القرآنية، وانتهى إلى أن سبب الاختلاف فيها هو أن "المصحف الشريف" في أول كتابته لم يكن منقوطاً، فكان العربي المسلم يقرأ وينطق بملكة اللغة المتوارثة، ودلل على ذلك ببعض الأمثلة، منها قوله تعالى: (صبغة الله) [البقرة:١٣٨]، وقوله تعالى: (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) [الجاثية:١٣] وقال عن الآية الأولى إنها قرئت قراءتين: (صبغة) بالصاد المهملة بعدها باء موحَّدة ثم غين معجمة، و"صنعة" بالصاد أيضاً بعدها نون ثم عين مهملة. ثم أخذ الطناحي في مناقشة هذه القراءة، فبين أنها ليست من المتواتر، ولا حتى من الشاذ، قال: "ولست أدري من أين جاء بها الشيخ؟" ثم عرض توجيه أهل التفسير للآية على معنى "صبغة".

والذي يهمنا في هذه المقالة هو ما عرض له الطناحي من مناقشة قضية خلو المصحف الشريف من النقط والإعجام، وهي قضية جد خطيرة، قد خاض فيها كثيرون، فنجا منهم مَن نجا وهلك من هلك، ولعل أول من نقب هذا النقب هو المستشرق المجري جولدزيهر، وقد تبعه خلق من المستشرقين، وعدد من العلماء المسلمين. وقد ناقش الطناحي هذه القضية مناقشة تشهد له، على اقتضابها، بطول الباع، والتمكن من هذا الفن، مع صلاح النية وسلامة الاعتقاد. فقد نفى نفياً قاطعاً أن يكون خلو

المصاحف من النقط هو السبب في اختلاف القراءات، إذ هي توقيفية وليس فيها مكان لاجتهاد المجتهدين، ولا لتأول المتأولين[١٨]. وقد صدر في ذلك كله عن إيمان وعقيدة، يقول: "والمأمول منك أيها القارئ الكريم أن تجعل هذه القضية على بالك، وأن تشغل بها بالك ووقتك، فإنها دين وعقيدة"[١٩].

على أن الطناحي قد عرض لهذه القضية من قبل في مقالة نشرتها مجلة الهلال عام ١٩٩٧، وهي ثانية مقالتين قدم في الأولى منهما عرضاً لكتاب الدكتور الطاهر أحمد مكي الموسوم بـ "دراسة في مصادر الأدب"، أما الثانية فأدارها على مناقشة ما جاء في الكتاب من تاريخ النقط في الحروف العربية، وقد دلف منها إلى مسألة تجرد المصاحف من نقط الحروف التي رأى الدكتور مكي أن الاختلاف في القراءات القرآنية راجع إليها، وقد وصف الطناحي، على جم أدبه، هذا الرأي بأنه "خطأ محض ووهم غليظ" ثم قال: "وليغفر لنا الأستاذ الكبير هذه الأوصاف؛ لأن الأمر يتعلق بكتاب ربنا عز وجل"[٢٠]. وكذلك عرض للقضية نفسها في مقالة له عنوانها: هذه النقطة .. وقضية التصحيف والتحريف، مؤكداً الموقف نفسه ببراعة فائقة، وإحاطة تامة، وعلم غزير.

فن التلاوة

ولم يقتصر علم الطناحي بالقراءات على الجانب النظري منها، بل تعداه إلى فن الأداء، ليدبج فيه مقالات ترجم فيها لبعض حذاق القراء المهرة، كمقالته: الشيخ مصطفى إسماعيل وقراء مصر، التي تشي بحسن ذوقه واهتمامه بدقائق الأداء، وإلمامه بالمقامات والغناء والأصوات، مما لا يكاد يقع لكثيرين، وهو في نظري من تمام العلم بالعربية التي هي لغة فن وموسيقى وإيقاع.

وآية ذلك أن الطناحي ينتقل من الحديث عن القراءات تاريخاً وعلماً، إلى الحديث عنها فناً وأداء، بأصوات القراء المشهورين، ممن أنعم الله عليهم بحسن الصوت وجمال الأداء. يقول: ويبدو أن لمصر في ذلك تاريخاً قديماً، تأخرنا كثيراً في كتابة تاريخ قراء مصر، ومكتبتنا العربية خالية من هذا اللون من الكتابة إلا شيئاً يسيراً كتبه الأستاذ محمود السعدني (وهو سميع كبير) في أواخر الخمسينيات، سماه: "ألحان من السماء"، ثم ما يكتب أشتاتاً متفرقات في بعض المجلات. ثم يذكر ما جاء من كتاب الأستاذ كمال النجمي عن الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل، وهو الكتاب الذي يرى أنه جاء مجلى لحياة الشيخ مصطفى وتقلبه في العالمين.

والحق أن ما أشار إليه الدكتور الطناحي أمر غاية في الأهمية، فالقراء في مصر ظاهرة قوية، لو وجدت في بلاد الغرب لقامت لها الدنيا وما قعدت، ولأجريت حولها دراسات وأبحاث، وقدمت فيها رسائل جامعية، وأنشئت من أجلها المراكز، وقد وقفت على هذا عندما أسند إليَّ مركزُ أكسفورد للدراسات الإسلامية عرض كتاب للدكتورة كريستينا نلسون عنوانه: "فن تلاوة القرآن"، وهو رسالة دكتوراة كتبت في صلب هذا الموضوع، ومن حسن الموافقات أن ظهرت على غلاف كتابها صورة للشيخ مصطفى إسماعيل وهو مستغرق في التلاوة وقد وضع كفه على صفحة وجهه، مستغرقاً في الأداء كل الاستغراق!

وتلي هذه المقالة مقالة أخرى نشرتها مجلة الهلال سنة ١٩٩٣، يفرق فيها الطناحي بين القارئ والمقرئ، ويذكر بعض المقرئين الذين نبغوا في مصر في زمانه، كالشيخ عبد الفتاح القاضي والشيخ إبراهيم علي شحاته والشيخ أحمد عبد العزيز الزيات. ولكنه يدير مقالته كلها على القراء جمع قارئ، ولا سيما الشيخ عامر عثمان، وبعد التعريف به، ينتقل إلى الكلام عن تفننه في مجال الأداء الصوتي، ويأتيك من ذلك بأمثلة تدل على حسه المرهف وذوقه الرفيع.

* * * * *

الطناحي ومحمود شاكر وصحبة ثلاثين عاماً

لن أبدأ بالحديث عن الشيخ الجليل محمود شاكر، وما كان ينبغي لي أن أفعل، ولكن أترك المجال لتلميذه البار، الدكتور الطناحي، ليحدث عنه، فهو إليه أقرب، وبه أعرف، فلتصغ إليه أيها القارئ الكريم وهو يقول عن شيخه: لقد "عرفت هذا الرجل معرفة وثيقة خلال ثلاثين عاماً، وخبرت سواده وبياضه، وكاشفني بدخيلة أمره وتقلبه في العالمين، وقد رأيت إنساناً سوياً واضحاً مكشوفاً، لا يداري ولا يماري، يصرح ولا يكني، ينطق ولا يجمجم، باطنه وظاهره سواء، وهو سعيد مقبل على الحياة، يستمتع بطيباتها إذا أقبلت، ولا يحفل بها إذا أدبرت، وينعم بما أفاء الله عليه من مكتبة ضخمة عامرة، لم تتيسر لأحد من علماء عصرنا، قرأها كلها قراءة كتاب واحد، بذلك العقل الذكي الذي يجمع كل شاذة وفاذة، ثم هو سعيد أيضاً بالقلوب التي تجمعت حوله، طوائف من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، وسعهم هذا البيت الكبير، الذي لم يعرف الرسميات فلم يفتح لهم ساعة دون ساعة"[٢١].

وقد كتب الطناحي مقالة أخرى عنوانها "محمود محمد شاكر"، بدأها بترجمة للشيخ ضافية، ذاكراً فيها مناقبه، ومعدداً مآثره، وما أكثرها، ومنها أن حياته، رحمه الله، سارت في طريقين استويا عنده استواء واضحاً عدلاً، أما أولهما، فطريق العلم والمعرفة، يعبّ منهما ولا يروى، وأما الثاني، فالتنبه الشديد لما يحاك لأمتنا العربية من كيد ومكر، وما يراد لثقافتها وعلومها من غياب واضمحلال. ثم عرج إلى إنتاج الشيخ، فذكر أنه دار في ميدانين: التأليف والتحقيق، وأنه كان في كلاهما مشغولاً بقضية أمته العربية، وما يراد لها من كيد، في عقيدتها ولغتها وشعرها وتراثها كله. قال: "وقد أبان عن هذه القضية بياناً شافياً في كتابيه "أباطيل وأسمار" و"رسالة في الطريق إلى ثقافتنا"، ثم نثرها فيما دق وجل من كتاباته، وما برح يعتادها في مجالسه ومحاوراته، يهمس بها حيناً، ويصرخ بها أحياناً، لا تفرحه موافقة الموافق، ولا تحزنه مخالفة المخالف"[٢٢].

أما حديثي أنا عن الطناحي والشيخ محمود شاكر، فمن حيث انتهى بالشيخ، رحمه الله، الأجل، وما كتبه الطناحي في العدد التاسع والستين بعد المائة الرابعة من مجلة "العربي" تحت عنوان: "أي شلال هادر توقف"، وذلك أن هذا العنوان الذي اختاره الطناحي للكتابة عن وفاة الشيخ شاكر يختصر لنا الطريق إلى تبيين نظرة الطناحي لأستاذه الشيخ شاكر، بما يحمله من معاني ضخمة، تذكرني، من وجه، بالعنوان الذي اختاره مارون عبود للحديث عن المتنبي في كتابه "الرؤوس" وهو: "رأس ضخم". تلك النظرة التي أبانت عنها هذه المقالة على وجه الخصوص، فما هذا العنوان إلا عبارة لها ما قبلها وما بعدها، وإنني أستسمح القارئ أن أنقل له مطلع المقالة، فهو، على صلته بموضوعنا، لا يخلو من فائدة، يقول:

"في الساعة الخامسة من عصر يوم الخميس ٣ من ربيع الآخر ١٤١٨ هـ - ٧ من أغسطس ١٩٩٧م دُعي محمود شاكر فأجاب، وبعد نصف ساعة من انتقاله للرفيق الأعلى كنت على رأسه ألقنه الشهادتين، ثم دارت بي الأرض وأنا أنظر إلى هذا الجسد الساكن وقد صرعه الموت، وهو الذي غالب المحن وصارع الشدائد، فلم تلن له قناة، ولم يخفت له صوت، ولم يرتعش في يده قلم، حتى جاءه القاهر الذي لا يغلب. ثم نظرت إليه أخرى وقلت: أي صوت مجلجل سكت، وأي شلال هادر توقف، وأي نبع عذب غاض، وأي نبت مزهر صوّح، وأي ركن جليل ساخ، وأي فارس فاتك ترجل؟"[٢٣]

هكذا كانت نظرة الطناحي لمحمود شاكر، نظرة عبر عنها قلمه الذي دبج في شيخه مقالات من أجمل مقالاته، وكيف لا تكون كذلك وموضوعها هو هذا الرأس الضخم؟ وقد كتبها الطناحي في حياة شاكر وغداة وفاته، وأبان فيها "عن تاريخه الحافل مع العربية: تحصيلاً لها وإحاطة بها، وذوداً عنها، ومنافحة دونها، وكشفاً لأسرارها، مما تفرد به ولم يدانه فيه أحد من أدباء جيله". ولا جرم إذن أن يكون في نظره كالجاحظ في نظر أبي حيان الذي قال فيه مقارناً بينه وبين ابن العميد: "إن مذهب

الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد، بالطبع والمنشأ والعمل والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ. وهذه مفاتح قلما يملكها واحد، وسواها مغالق قلما ينفك منها أحد". ويرى الطناحي أنك إن قرأت هذا الكلام العالي، وأعطيته حظه من النظر والتأمل، ثم نزلته على محمود شاكر، إن كنت تعرفه معرفته- فستراه مفصلاً عليه تفصيلاً، ومصروفاً إليه صرفاً.

مجلس الشيخ شاكر

ولنمض قليلاً لنرى وصف الطناحي لمجلس محمود شاكر الذي يشيع أنساً ويتفجر علماً، وقد عمر بطوائف "من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، ضمهم بيته المفتوح دائماً، وقد خلا من الرسميات والمواعيد المضروبة من قبل"، ومن هنا فلا يجد الطناحي بأساً أن يكرر ما كتبه في بعض ما كتب من قوله: "إنه لم يحظ أحد من أدباء هذا الجيل بمعشار ما حظي به محمود شاكر، من الالتفاف حوله والأخذ عنه والتأثر به". وينقل الطناحي في هذه المقالة وصف الأستاذ فتحي رضوان لذلك البيت الشاكري إذ يقول: "كان بيته ندوة متصلة لا تنفض، من أعضائها الثابتين: يحيى حقي، إذا حضر من أوروبا، وعبد الرحمن بدوي، وحسين ذو الفقار صبري، ولم يكن من حظي أن أكون عضواً دائما فيها، فقد كنت ألم بهم أحياناً، فأراهم وأرى من العالم العربي كله، ومن العالم الإسلامي على ترامیه، شخصيات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، في الرأي والمظهر والثقافة واللهجة والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقي عند محمود شاكر، تسمع له وتأخذ عنه وتقرأ عليه وتتأثر به". ويمضي الطناحي ليضيف إلى من ذكرهم الأستاذ فتحي رضوان ممن كانوا يختلفون إلى مجلس الشيخ في الخمسينيات وما قبلها، أسماء أخرى لأعلام من المفكرين الذين عرفهم في ذلك المجلس العامر، على امتداد الستينيات والسبعينيات، ومنهم: عبد الرحمن صدقي وعلي أدهم وحسن كامل الصيرفي ومحمود حسن إسماعيل، ومن أعلام العرب: أحمد المانع وناصر الدين الأسد وأحمد راتب وإحسان عباس وعبد الله الطيب المجذوب وإبراهيم السامرائي وبشار عواد معروف وغيرهم كثير سماهم بأسمائهم، ثم يتساءل: فهل وجدت هؤلاء قد اجتمعوا يوماً عند أديب من أدباء مصر! ثم يتسع المجلس أيضاً للطلاب المبتدئين والشباب المعيدين.

دفاع عن الشيخ شاكر

ولئن كان مما عرف واستفاض عن الشيخ محمود شاكر أن فيه حدة، فإن الطناحي يعترف بذلك على مضض، ويحاول أن يلتمس له مخرجاً، فهو ينكر كل الإنكار أن تكون تلك الحدة نتيجة الإحساس بالفشل، أو ضياع الحياة سدى، كما زعم مناصبو الشيخ العداء، ولكنها نتيجة لإدراك الرجل لمأساة هذه الأمة العربية التي ورثت مجداً شامخاً أضاعه الورثة من أبنائها.

وكأني به لم يرض من نفسه الوقوف عند ذلك الاعتراف، بل راح ينفي ذلك نفي العارف الواثق، ويرى أنه كذب افتراه بعض الناس لحاجة في نفوسهم، فهو يذكر أنه صحب محمود شاكر ثلاثين عاماً، وأنه ما زال يذكر أول يوم زاره فيه، قال: "وكنت في صحبة الأخ العلامة الكبير أحمد المانع، أحتمي به من مشاعر الهيبة والخشية والحذر، من تلك الحدة المزعومة في شخصية محمود شاكر، وهو شعور عرفناه جميعاً قبل أن ندخل البيت، وحين توثقت صلتنا بالشيخ، اكتشفنا زيف هذا الشعور، وكذب تلك المزاعم التي أشاعها بعض الناس ليصدوا أهل العلم عنه، وإذا نحن أمام قلب طاهر نقي، يغضب ويثور حين يرى حداً من حدود العلم قد انتهك، أو حين يسمع تطاولاً على تاريخ الأمة العربية وعلومها.

وتحت عنوان محمود محمد شاكر والسهام الطائشة كتب الطناحي في مجلة الجيل مقالة يدرأ فيها عن شيخه ما جاء في العدد الثاني من مجلة الجيل عام ١٩٩٨ من هجوم كاسح أكول على شيخ العربية وحارسها، على وصف الطناحي، تولى كبره حسين أحمد أمين.

وقد استعرض في هذه المقالة الذين شاركوا فيما شُنَّ على الشيخ شاكر من هجوم بدأ غداة وفاته، فذكر السيدة صافيناز كاظم، ورأى أنها أول من نقب هذا النقب في كلمة لها بجريدة الدستور بعد وفاة الشيخ بثلاثة عشر يوماً، ثم الأستاذ نسيم مجلي الذي كتب كتاباً نشره بالأهالي، سماه: صدام الأصالة والمعاصرة – محمود شاكر ولويس عوض، ثم الأستاذ سمير غريب في كتابه الذي صدر أخيراً عن دار الشروق بعنوان: (في تاريخ الفنون الجميلة)، ونقد في الصفحة ٧٩ منه مقالاً للأستاذ محمود شاكر، نشره في مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠ ورد فيه على الدكتور طه حسين كلمة له عن الفن الفرعوني، وصولاً إلى الأستاذ حسين أحمد أمين الذي حظي بنصيب الأسد من رد الطناحي في هذه المقالة.

فأما الأستاذة صافيناز فلم يستطرد الطناحي في مناقشتها، لأنه يرى "في كتاباتها في السنوات الأخيرة وجوهاً من الخير ينبغي أن نستبقيها وأن نستزيد منها"، ولأنه رأى أن ثورتها ترجع إلى مقابلة جافة من الشيخ لها، ومع ذلك فقد أنشدها قول أبي العلاء:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إني أخافُ عليكم أن تلتقوا

ثم قول أبي العتاهية:

إلى الديان يومَ العرض نمضي وعند الله تجتمعُ الخصومُ

وأما الأستاذ نسيم مجلي، فقد ذكّره بكتابه الآخر في القضية نفسها: لويس عوض ومعاركه الأدبية، وهو كتاب أهداه إلى الشيخ محمود شاكر في حياته وكتب بخطه: "إلى الصديق الكبير الذي أحببته كثيراً، واختلفت معه كثيراً، وتعلمت منه الكثير، إلى الأستاذ محمود شاكر بطل هذه المعارك ومفجرها، مع أجمل أمنياتي". ويُتبع الطناحي هذا بقوله: "فلما غاب وجه محمود شاكر بالموت، رتع نسيم مجلي في لحمه، وإذا الذي كان همساً صار صراخاً، والذي كان تلميحاً أضحى تصريحاً..."، ثم تعجب من موقف مجلي هذا وذكره باستقبال الشيخ محمود له وحفاوته به وتوديعه له على باب المصعد، وقوله له: ابقى تعال يا نسيم، قال الطناحي: وهي كلمة حانية من الشيخ لا يقولها إلا لمن يحبه ويوده، قال: ويا ليته كان قد قالها للأستاذة صافيناز (وكنا خُلّصنا)[٢٤]. ثم ينشد نسيماً قول أبي العلاء:

فيسمعُ مني سجعَ الحمام وأسمعُ منه زئيرَ الأسد

ثم يرد على الأستاذ سمير غريب، ويقول له مقولة للإمام علي رضي الله عنه عن امرأة كانت قالت كلاماً لا يُظنّ أن يكون منها: "أما والله ما قالته، ولكن قُولته".

وقبل أن نشرع في بيان رد الطناحي على ما قاله الأستاذ حسين أحمد أمين، نحب أن نسوق للقارئ ما قاله في أولئك الذين تربصوا بالرجل حتى طواه الموت، ثم راحوا يُصَوِّبون إليه سهامَ نقدهم، ومنهم حسين أحمد أمين، ذلك أن قوله يبين مدى انتصاره لشيخه واستخفافه بمن نالوا منه، ويظهر قدراً غير يسير من القدرة على التهكم واستحضار الشواهد الشعرية ووضعها في مواضعها كما مر بيانه. يقول: "ما هذا يا قوم؟ أتهاجمون الرجل بعد أن غيبه القبر؟ لماذا لم تردوا على الشيخ كلامه في حياته؟ ما أظن إلا أنكم خفتم أن يأخذ بأكظامكم، ويأتيكم من فوقكم ومن أسفل منكم، فتزيغ أبصاركم كالذي يغشى عليه من الموت، ثم يتركم فإذا أنتم ضُحكة الضاحك وهزءة المستهزئ، فننشدكم قول طرفة بن العبد:

يا لك من قبرة بمَعْــمـــــــر

خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقــــــري ما شئت أن تنقري

قد رحــل الصياد عنك فابشري

ورفع الفـــخ فماذا تحـــــذري؟

ثم ننشدكم أيضاً قول المهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليباً الذي كان يضرب به المثل في العزة المتناهية، وكان من خبره أنه إذا حضر مجلسه الناس لا يجسر أحد أن يفخر أو يجاذب، إعظاماً لقدره وإجلالاً لشأنه، فلما مات قال المهلهل:

نبئت أن النار بعدك أوقـدت واستب بعدك يا كليب المجلـس

وتكلموا في أمر كل عظيمة لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

ثم يأخذ الطناحي في الرد على حسين أمين، فلا يفرغ له من حجة إلا وهي داحضة، ولا يدعُ له من زيف إلا وهو مكشوف، ولا يغادر له صغيرة ولا كبيرة إلا ويرد عليه فيها رداً مفحماً ويجيب إجابة مسكتة، فهو كالذي أتى بنيانه من القواعد فخر عليه السقف من فوقه! وأول ما بدأ به هو إبطاله قول حسين إن مفتاح شخصية محمود شاكر يكمن في إحساسه العميق بالفشل، وفي شعوره بأن حياته قد ضاعت سدى، وقد مضى شيء منه. ثم ناقشه حديثه عن قلة إنتاج الرجل، وأنه لم يترك غير كتاب عادي عن المتنبي، وديوان شعر هزيل ضحل، ثم تحقيق لبعض كتب التراث، وقد احتشد الطناحي للرد على هذه المفتريات، مبيناً مكانة كتاب الشيخ شاكر عن المتنبي، وأنه ليس كتاباً عادياً، ومصححاً حسيناً في النقطة الثانية، من أن شاكراً ليس له ديوان شعر مطبوع، بل له "القوس العذراء"، وهي قصيدة طويلة مستوحاة من قصيدة للشماخ، قال الطناحي: "وهذه القوس العذراء من عيون الشعر العربي، وقد هزت الدنيا وشغلت الأدباء، وكتب عنها كبار الأدباء: إحسان عباس، ومحمد مصطفى هدارة، ومحمد أبو موسى. ثم كتب عنها المفكر والأديب الكبير زكي نجيب محمود، ولا شك أنك تعرفه حق المعرفة، لأن له مع والدك تاريخاً قد يسوؤك بعضه!"[٢٥]

* * * * *

تحقيق التراث

وكما ذكرنا في بداية كلامنا، فتحقيق التراث هو أبرز جانب في شخصية هذا العالم النحرير، وعليه تدور معظم مقالاته، ولا غرو، فإن له مع التراث رحلة ممتعة وتاريخاً حافلاً، تظهر فصوله من خلال المقالات الكثيرة التي كتبها في حياته رحمه الله، حتى إنك لا تكاد تجد له مقاله إلا وينبعث من بين سطورها عبق التاريخ، وتفوح منها رائحة التراث. ثم ما أودع في مقدمات ما حقق من كتب من دروس في المنهج "الذي ينبغي أن يلتزم به من يقوم بالتحقيق"[٢٦].

وهو إلى هذا يهتم كثيراً بالترجمة لأعلام تحقيق التراث الذين عاصرهم وأخذ عنهم، كترجمته للأستاذ فؤاد سيد، الذي بدأ الطناحي مقالته عنه بقوله: "في صباح يوم الأحد الثاني من رمضان، سنة ١٣٨٧هـ الثالث من ديسمبر سنة ١٩٦٧م دُعي الأستاذ فؤاد سيد فأجاب، وخسرت مصر والعالم العربي بوفاته عالماً فرداً، ظل يعمل في دنيا المخطوطات قرابة الأربعين عالماً، درساً وتمثلاً وتصنيفاً"[٢٧]. ثم ترجمته للأستاذ رشاد عبد المطلب الذي قال فيه: "كان ملء السمع والبصر، وكانت حياته بَهجة للقلب والعقل جميعاً، وحين نعاه الناعي كادت النفس أن تفيض عليه، وغشي القلب حزن أسود كئيب من هول الرزء وفداحة المصاب، ولم يجد محبوه وعارفو فضله إلا قول أبي الطيب المتنبي:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعتُ فيه بآمالي إلى الـكذبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقه أمـلاً شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي

ثم ترجمته للأستاذ محمد مرسي الخولي الذي قال عنه: "لقد كان محمد مرسي الخولي آخر حارس من حراس معهد المخطوطات، هذا الصرح الشامخ الباذخ، الذي قدم للتراث الإسلامي والعربي الكثير"[٢٨].

وكذلك مقالته عن بنت الشاطئ وتحقيق التراث، والتي يقول فيها عن بنت الشاطئ إنها خاضت لجة هذا البحر وهي مؤمنة بقضية كبرى، هي قضية ذلك التراث العربي، وواجبنا نحو إبرازه وكشفه وإضاءته، لتقوم عليه الدراسات الصحيحة، فلا دراسة صحيحة مع غياب النص الصحيح المحرر. وقد بدأ هذه المقالة بتقرير حقيقة أن المستشرقين كانوا أسبق منا نحن العرب في إذاعة تراثنا ونشره، ويذكر من أسماء من برز منهم في هذا المجال ديرنبورج، ناشر "كتاب سيبويه"، وهو فرنسي، ووليم رايت الإنجليزي، ناشر الكامل للمبرد، وتشارلز لايل الإنجليزي، ناشر شرح المفضليات للأنباري، وبيغان الإنجليزي، ناشر نقائض جرير والفرزدق، وكرنكو، وهو أغزرهم إنتاجاً. ويمضي فيذكر من اشتهر في هذا المجال من المستشرقين الإسبان والهولنديين والألمان. وكذلك يذكر وستنفلد، وقد قال فيه: "ولا يدانيه أحد من المستشرقين في كثرة ما نشره من نصوص، وقد قضى عمره كله مكباً على العربية، في لغتها وأدبها وتاريخها وجغرافيتها، وقد ألف وحقق في ذلك كله نحو مائتي كتاب بين صغير وكبير، ومن أبرز ما نشره: السيرة النبوية لابن هشام، والمعارف لابن قتيبة، ومعجم ما استعجم للبكري، ومعجم البلدان لياقوت"[٢٩]. ثم يذكر عدداً من المستشرقين الروس، ليدلف إلى من اشتهر في هذا الباب من العلماء العرب، فيذكر أطواداً شامخة من مصر وسورية والعراق والمملكة العربية السعودية وتونس والمغرب الأقصى. ولا ينسى أن يمر بالهند ليذكر ممن اشتهر من علمائها بتحقيق التراث العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي، والسيد بدر الدين العلوي والسيد محمد يوسف، وحبيب الرحمن الأعظمي وعبد الصمد شرف الدين.

وإن كان الطناحي خلص من هذا الذكر إلى أن هذا العلم هو علم الرجال، إذ لا يُرى للمرأة فيه أثر كبير، ولم تظهر أسماء النساء فيه إلا من خلال بعض الأطروحات الجامعية، فإنه يذكر أسماء عدد محدود من المحققات النابهات كابتسام مرهون الصفار من العراق، وفاطمة حمزة الراضي، وغيرهن. على أنه يتوقف عند الأديبة اللبنانية وداد القاضي التي زاحمت كبار المحققين الرجال، قال: "ولا عجب في ذلك، فقد تلقت أصول هذا الفن على يد شيخها إحسان عباس، وقد أعانته في نشر موسوعات تراثية كبار مثل وفيات الأعيان، وفوات الوفيات، وذخيرة ابن بسام، ونفح الطيب"[٣٠]. ومن أبرز تحقيقاتها "البصائر والذخائر"، وقد كان نشره، كما يقول الطناحي، عزمة من عزماتها، إذ كان أحمد أمين والسيد أحمد صقر قد نشرا منه جزءاً واحداً عام ١٩٥٣ ثم توقفا عن نشره.

ولا ينقضي عجبك وأنت تقرأ أسماء نساء عملن في مجال تحقيق النصوص في عالم الاستشراق، مما يدل على أن الرجل قد وهب لهذا الفن حياته، وخبره ظهراً لبطن، وعرف رجاله ونساءه.

على أن الذي فاز بالسهم الأغلب من الحديث عنه في هذا المجال هو الشيخ محمود شاكر، وقد مر من خبره ما يشي بذلك ويُبين عنه. وكذلك أخوه الأكبر الشيخ أحمد شاكر الذي وصفه الطناحي بأنه واضع أصول نشر التراث بتحقيقه لكتاب الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي[٣١]، وذكر من أعماله تحقيق أجزاء من "مسند الإمام أحمد بن حنبل" ومن "سنن الترمذي" و"المعرّب" للجواليقي، و"لباب الآداب لأسامة بن منقذ". وقد كتب الطناحي مقالات عدة كسرها على الشيخ محمود شاكر،

تناول فيها جهوده في تحقيق التراث، منها مقالة عنوانها: محمود شاكر ومنهجه في تحقيق التراث، ومقالة عنوانها: الشيخ محمود شاكر وتاريخ ضخم، وغيرها.

ثم ما وضع الطناحي من مقالات حول هذا الموضوع من غير طريق ترجمة أعلامه، كمقالته عن التراث العربي في المغرب، ومقالة له بعنوان تراثنا رحلة شاقة شيقة، تكلم فيها عن مراحل نشر التراث، ومقالة له عنوانها: "التحقيق" ذكر فيها أصول هذا الفن ومراحل تطوره، وكذلك مقالة له عنوانها: "حلقات مفقودة في تراثنا المطبوع"، ذكر فيها أسماء الكثير من المخطوطات الكبيرة التي لا زالت تنتظر من يقوم بتحقيقها وإخراجها للنور، ككتاب "البرهان في علوم القرآن"، لأبي الحسن الحوفي المصري المتوفى سنة ٤٣٠ هـ، وهو كتاب قال فيه: "ولا تقل إن "البرهان" للزركشي، و"الإتقان" للسيوطي يكفيان، فهذان بالنسبة إلى كتاب الحوفي قطرة في بحر، مع اختلاف المنهج والمادة العلمية. وقد استطرد في ذكر كتب من هذا الطراز في مختلف العلوم، ولا سيما التاريخ. ومن هذه المقالات أيضاً مقالة عنوانها: "دار الكتب ونشر التراث في مصر"، وقد تكلم فيها عن المكتبة الزكية، لأحمد زكي باشا الذي كان صاحب الفضل في مد الجسور بين مصر وأوروبا. ومقالة عنوانها: تركيا والمخطوطات العربية ذكر فيها من حديث المخطوطات العربية في تركيا الشيء الغريب العجيب. ولكيلا أطيل على القارئ الكريم، إن لم أكن قد أطلت، أختم بذكر مقالة له في هذا الباب عنوانها: "المتنبي وعلم المخطوطات"، ذكر فيها مخطوطة نفيسة لشرح ديوان المتنبي للواحدي، وتكلم فيها أيضاً عن حاجتنا إلى المخطوطات، وعدد أسماء أخرى من علماء المخطوطات الذين عرفهم في المغرب وتونس وغيرها.

وغير خافٍ ما أصاب هذا العلم بأخرة من ترهل وضعف سببه أن اجترأ عليه بعض من ليس لهم في العلم باع، ولا سيما من طلبة الدراسات العليا، الذين يستسهل الواحد منهم أن "يحقق" مخطوطة مهما كانت قيمتها العلمية، على أن يجشم نفسه أهوال البحث والتنقير، ويدخلها في بحار لا ساحل لها من الآراء والأقوال، وليس معه ما يتبلغ به من أدوات البحث والتحقيق، وفي ذا يقول الطناحي: "ويشتد بي العجب – وقد قضيت مع هذا العلم خمسة وثلاثين عاماً: ناسخاً ومفهرساً ومحققاً ودارساً – حين أقرأ لبعض الناس الآن كلاماً أخاذاً براقاً عالي النبرة عن المخطوطات وسرقتها والغيرة عليها، مع يقيني الذي لا يداخله الشك أنهم لم يعانوا هذا العلم ولم يعرفوا شيئاً عن أسراره وخباياه، فضلاً عن أنّهم لم يجالسوا شيوخه وأعلامه، وأساس العلم التلقي والمشافهة، فهي حماسة كاذبة وولاء مدخول:

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا"

* * * * *

وبعد، فلا إخالني قد قلت في حق هذا الرجل إلا أقل القليل مما يجب قولُه، لكنّما هي شروط النشر، ورغبة الكثيرين عن القراءة، وإن ما أرجوه أن تكون مقالتي هذه قد شوقت القارئ الكريم لمعرفة هذا العلم معرفة أوسع، وتتبع بحوثه ومقالاته، والسعي لاقتناء المزيد من كتبه ومحققاته، فإنها ستفتح له أبواباً من النظر، وتدله على فوائد من الكتب، ربما ما كان ليقف عليها وحده. وأطمع كذلك أن تكون قد حركت لديه داعية الطلب للاستزادة في المسائل التي مر ذكرها، والبحث عنها في مظانها. وإنني أهيب بالأساتذة الكرام مدرسيين وجامعيين، أن يقتفوا أثر هذا العالم النحرير، وأمثاله من الأعلام الخالدين، الذين شغلهم تراث هذه الأمة، وأخلصوا للعلم وتجردوا له، فرفع الله بإخلاصهم ذكرهم وأعلى به على الأيام مقامهم، وأن يُعَرّفوا به طلابَهم، وأن يطالبوهم بقراءة بعض مقالاته، ومناقشتها ضمن مادة الأدب المعاصر، فإن أسلوب الرجل من أعلى الأساليب إنشاء، وأحلاها بياناً، وأجزلها ألفاظاً، وأمتنها تركيباً، وأغزرها مادة، وأقربها مسلكاً، وأكثرها فائدة.

[1] لا يحسبن القارئ أننا نتفق مع أمين في كل ما يقول، بل إننا نخالفه أشد المخالفة في أمور، ولا سيما في نظرته للحديث النبوي التي فندها الدكتور مصطفى السباعي في الفصل السابع من كتابه النفيس "السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي".
[2] سيأتي تفصيل لهذا القول لدى كلامنا على الطناحي وتحقيق التراث.
[3] انظر مقالة أحمد تمام على موقع إسلام أون لاين.
[4] انظر مقالة: الطناحي ورحلته مع التراث، بقلم أ. د. عبد الله حمد محارب. المقالات ٩/١.
[5] هذه العبارة من كلام الدكتور مصطفى ناصف، مقالات الطناحي ٤٤٠/٢.
[6] مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م. ٤٤٥/٢
[7] المقالات ٤٤٢/٢
[8] انظر: الكفاف، يوسف الصيداوي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م. ١٨/١-١٩. وإنما نعني هنا دعاوى نبذ بعض المباحث النحوية وهدم بعض.
[9] المقالات ٦١٣/٢
[10] المقالات ٥٢٢/٢
[11] المقالات ٤٦٤/٢
[12] المقالات ٤٤٩/٢
[13] المقالات ٣٥٢/١
[14] المقالات ٣٥٢/١-٣٥٣
[15] المقالات ٦٩٥/٢
[16] روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الآلوسي، دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى، ١٩٩٤. ١١٠/١٢
[17] يكثر الطناحي من هذا الدعاء كلما ذكر أحد أساتذته ممن سبق إلى رحمة ربه.
[18] من الذين هلكوا في هذه المسألة الدكتور طه حسين، فقد بلغ به الخرق أن يقول فيها كلاماً لم يجرؤ على قوله عتاة المستشرقين، ومن العجيب أن ينقل محيي الدين الدرويش كلام طه حسين في هذا المبحث برمته في كتابه إعراب القرآن الكريم وبيانه، ثم يصفه بأنه "أحدث الدراسات فيه وأقومها"، مما دل على بالغ جهله في هذا الفن وكونه فيما جمع في كتابه حاطبَ ليل. انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة، دمشق-بيروت، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٣م. ١١٥/٤-١١٦
[19] المقالات ٥٨٤/٢
[20] المقالات ٥٠٤/٢
[21] المقالات ٦١٤/٢-٦١٥
[22] المقالات ٦٠٦/٢
[23] المقالات ٥٣٢/٢
[24] المقالات ٦١٠/٢
[25] المقالات ٦١٦/٢/٦١٧
[26] مقالة أحمد تمام، إسلام اون لاين
[27] المقالات ٧٠/١
[28] المقالات ١٣١/١
[29] المقالات ٦٦٨/٢
[30] المقالات ٦٦٩/٢
[31] المقالات ٨٤/١